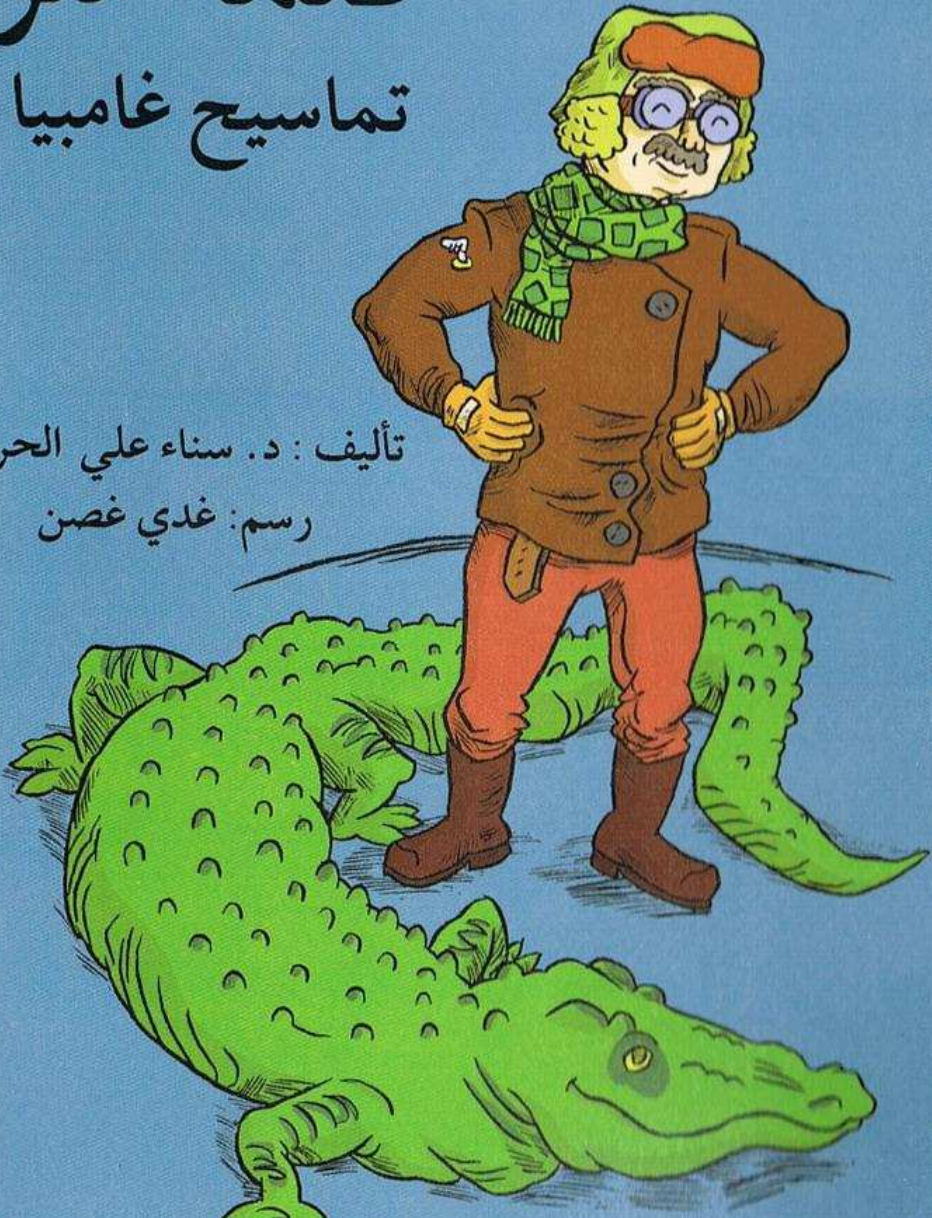
كلمة سرّ

تماسيح غامبيا

تأليف : د. سناء علي الحركه

رسم: غدي غصن



إلى «علي» الصّغير أكتب لأقول: اشتقت إليك.

الإهداء: إلى الّذين يُصدّقون الحكاية.

دار النهضة العربية
أصالة للنشر والتوزيع - طبعة أولى 2013
ISBN: 978-614-402-630-4
تلفون: 093 736 1 961+
فاكس: 071 736 1 961+
ص.ب.: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية - بيروت، لبنان
infos@asala-publishers.com

كلمة سرّ

تماسيح غامبيا

تأليف : د. سناء علي الحركه
رسم: غدي غصن

المقدّمة: صدّق أو لا تُصدِّق

لكَ أن تُصدِّقَ أحداثَ القصَّةِ، ولكَ ألّا تُصدِّقَها. ولكنّني صدَّقْتُها عندما رواها لي جدِّي .

كان جدِّي طيّارًا، يقودُ الطّائراتِ، وينتقلُ من بلدٍ إلى بلدٍ، عابرًا البحارَ والمحيطاتِ والقارّاتِ.

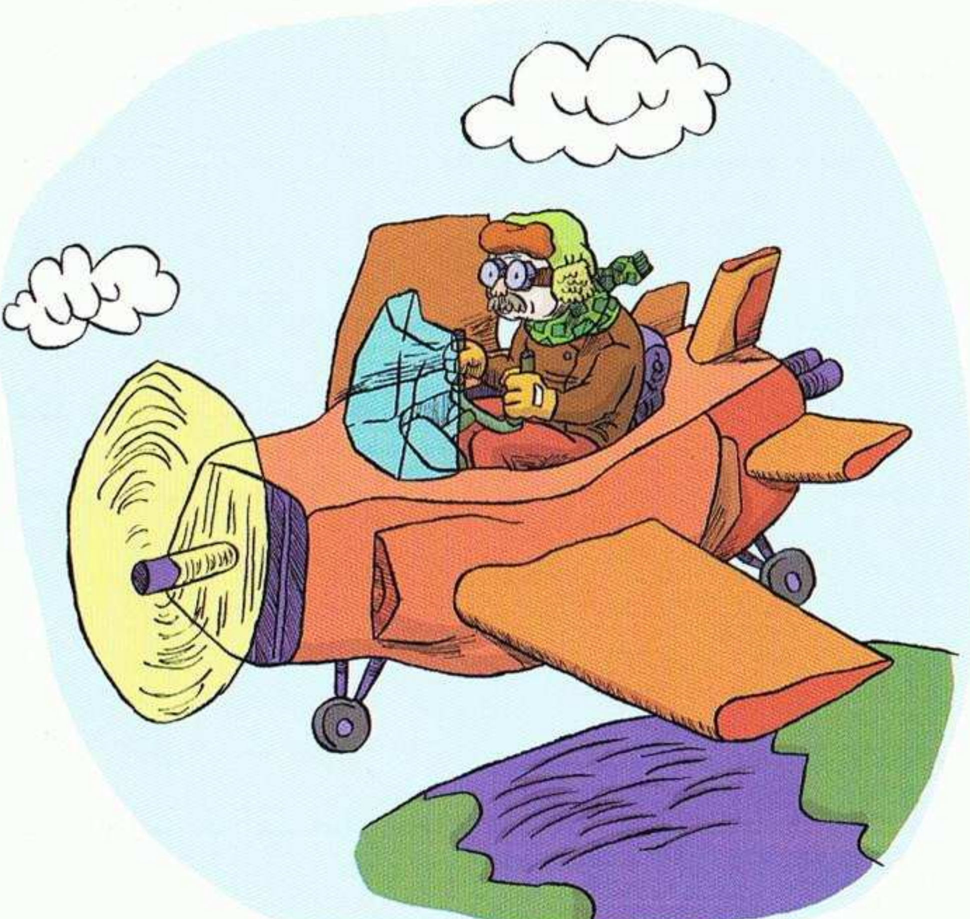
خبَّأ جدّي في ذاكرَتِهِ قصصًا كثيرةً عن بلادٍ زارَها، وأطعمةٍ ذاقَها، ومواقعَ أثريَّةٍ قَصَدَها، وأحداثٍ شَهِدَها، وشعوبٍ تعرَّفَ إلى عاداتِها وتقاليدِها.

وإذا سألْتَهُ أن يحكيَ لكَ عن بلدٍ من البلدانِ الّتي زارَها بدأَ حديثَهُ بجملتِهِ الشّهيرةِ: «عندما أدخلُ بلدًا للمرَّةِ الأولى، أزورُ ماضِيَه، وأعيشُ حاضِرَهُ، وأتنبَّأُ مُسْتَقْبَلَهُ».

ما عُدْتُ أسْأَلُ جدّي ماذا تعني جملَتُهُ تلك، لأنّي صرْتُ أعرفُ. فزيارةُ المواقعِ الأثريّةِ هي زيارةُ الماضي. أمّا التّواصلُ مع السّكّانِ، وتناولُ طعامِهم، واحترامُ عاداتِهم، فذلك هو العيشُ في الحاضرِ. ويبقى أن تنبُّؤَ أحداثِ المستقبلِ عائدٌ إلى متابعةِ

جدّي لأحداثِ البلادِ السّياسيّةِ والاقتصاديَّةِ، وهي أمورٌ ما كنتُ أحبُّ أن أعرفَ كثيرًا عنها.

أمّا إذا سَألْتَهُ عن أغربِ مكانٍ زارَهُ فنُجيبُ ، نحن أحفادَهُ، بالقولِ: «غامبيا». الكلُّ يعرفُ أنَّ لجمهوريَّةِ غامبيا مكانًا مميَّزًا في ذاكرةِ جدّي وقلبِهِ.



الفصل الأوّل: غامبيا والتّماسيح المسالمة

تقعُ جمهوريَّةُ غامبيا في غربِ القارَّةِ الإفريقيّةِ. والحقيقة، أنَّها أصغرُ دولةٍ في تلك القارَّةِ. تُحيطُ بها السّنغالُ من جميعِ حدودِها البريَّةِ: الشّمال، والشّرق، والجنوب. وتُطلُّ جمهوريّةُ غامبيا من الغربِ على المحيطِ الأطلسيِّ الّذي يصبُّ فيه نهرُ غامبيا الَّذي يخترِقُها. مُناخ غامبيا مدارِيٌّ، فهو حارٌّ مُمْطِرٌ مِن حَزيرانَ حتّى تشرينَ الثّاني، وباردٌ جافٌّ من تشرينَ الثّاني حتّى أيّار.

والحقيقة أنّنا نعرفُ عن غامبيا أكثرَ مِمَّا نعرفُ عن غيرِها لكثرةِ ما يَحكي جدّي عنها. جدّي الّذي، قليلاً ما يَحكي، يَحكي كثيرًا عن غرائبِ هذه الجمهوريَّةِ وعجائِبِها، وتحديدًا، عن بحيرةِ التّماسيحِ فيها.

فهل قرأْتَ يومًا خبرًا عن تلك البحيرةِ، أو شاهدْتَ صورًا لها؟ إذا لم تكنْ قد فعلْتَ، فما عليكَ إلّا أنْ تبحثَ. عندها فقط،


موريتانيا
سنغال
غامبيا
مالي
غينيا- بيساو
غينيا
سيرا
ليون
ليبيريا

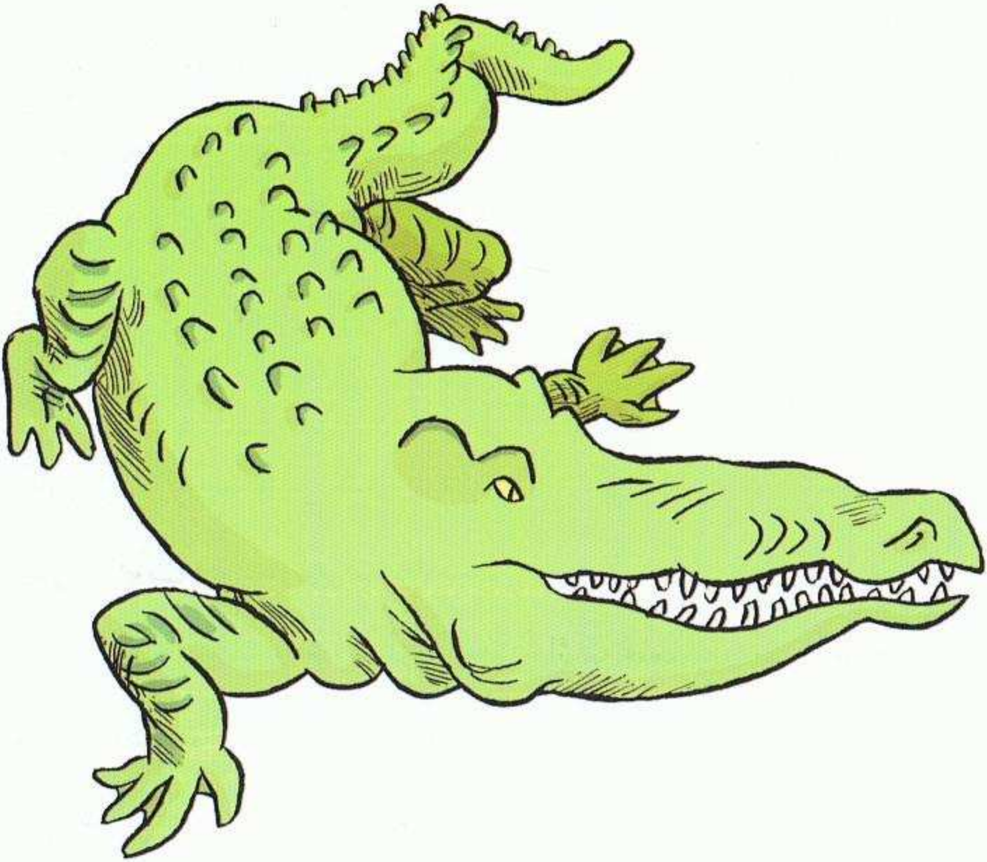
ستقرأُ الكثيرَ، وقد تَكتشفُ أنَّ أحداثَ القصَّةِ الّتي سمعَها جدِّي من سكَّان غامبيا حقيقيّةٌ، على الرُّغْمِ من احتفاظي بحقِّكم في تَصديقِها ، أو عدمِ تصديقِها.

تقعُ بحيرةُ التّماسيحِ «كاشيكالي» في غامبيا. والمعروفُ عن التّماسيحِ أنَّها من أضخمِ الزّواحفِ الحيَّةِ. للتِّمساحِ فمٌ واسعٌ، وستّون نابًا في الفكِّ الأعلى، وأربعونَ في الأسفلِ. وله لسانٌ طويلٌ، وجسمٌ طويلٌ أيضًا، وأرجُلٌ قصيرةٌ، وذَنَبٌ قويٌّ يُمكِّنُه من السِّباحةِ، وظَهْرٌ مثلُ السُّلَحْفاةِ.

ومِنَ الغَرائبِ أنَّ التِّمساحَ لا يستطيعُ إخراجَ لسانِهِ من فَمِهِ، كما يُمكنُهُ أن يَعيشَ من دونِ طعامٍ سبعمائةٍ وأربعين يومًا. وكي يزيدَ وزنُهُ كيلوغرامًا واحدًا، يجب عليه أن يأكلَ عشرةَ كيلوغرامات من الكائناتِ الحيَّةِ.

لكنَّ ما يرويه لنا جدِّي عن غرائبِ غامبيا لا يتناولُ وصفَ التَّماسيحِ، أو ما هو معروفٌ عن عجائبِها، ولا عن مُسالَمَتِها. ففي غامبيا، يقولُ جدّي، مئةُ تمساحٍ مُسالِمٍ. هناك فقط، يُمكنُ للإنسانِ أن يَجلسَ بالقربِ من التِّمساحِ، ويُلامِسَهُ، مِنْ دونِ أنْ يَتَعرَّضَ للأذى. الغرابةُ لا تقتصرُعلى هذه الحقيقةِ، بل تتعدَّاها

إلى القصّةِ الّتي رواها الأجدادُ للأحفادِ عن «كروكوديليا»، التّمساحةِ الأمِّ الّتي وَضَعَتِ البيضَ، وأخْفَتْهُ في الرَّملِ، وقامَتْ بِحراسَتِهِ، ككلِّ أمَّاتِ التَّماسيحِ، إلى أن فقسَتْ، فحملَتْها في فمِها إلى الماءِ.



الفصل الثّاني: بين الحياة والموت

يروي جدّي حكايةَ «كروكوديليا»، التّمساحةِ الأمِّ، نقلاً عن سكّانِ غامبيا فيقول: «ذاتَ يومٍ استفاقَ السّكّانُ على صراخِها بعدما عَلِقَ التّمساحانِ، المولودانِ حديثًا، في قناةٍ للماءِ، قديمةٍ وضيِّقةٍ، تُحيطُ بها الصّخورُ. أمّا كيف دخلاها، وكيف سيخرجان منها، فلا أحدَ يعلمُ.

راحَتْ «كروكوديليا» تتحرَّكُ بسرعةٍ لَمْ تَعْهَدْها التَّماسيحُ، تَدفعُها عاطفةُ الأمومةِ. وصارَتْ تميلُ تارةً إلى اليمينِ، وطورًا إلى اليسارِ. تتقدَّمُ خطوةً، وتتراجعُ خطواتٍ، في محاولةٍ للدّخولِ في قناةٍ، من المستحيلِ أن تدخلَها. أمّا كيف دخلَها التِّمساحانِ الصّغيرانِ، فسِرٌّ لم يُعْرَفْ بعد.

كان الوقتُ يمرُّ، ولا ما يُشيرُ إلى أنَّ التِّمساحيْنِ الصَّغيريْنِ على قيدِ الحياةِ سوى صوتٍ يَصدرُ عنهما، كأنَّه أنينُ موجوعٍ، أو بقايا بكاءِ طفلٍ ما عادَ قادرًا على البكاءِ.

وبِقَدْرِ ما كانتِ «كروكوديليا» تفرحُ لِسَماعِ صوتِ التِّمساحيْنِ، الأمرُ الّذي يُؤكِّد أنَّهما مايزالانِ على قيدِ الحياةِ،

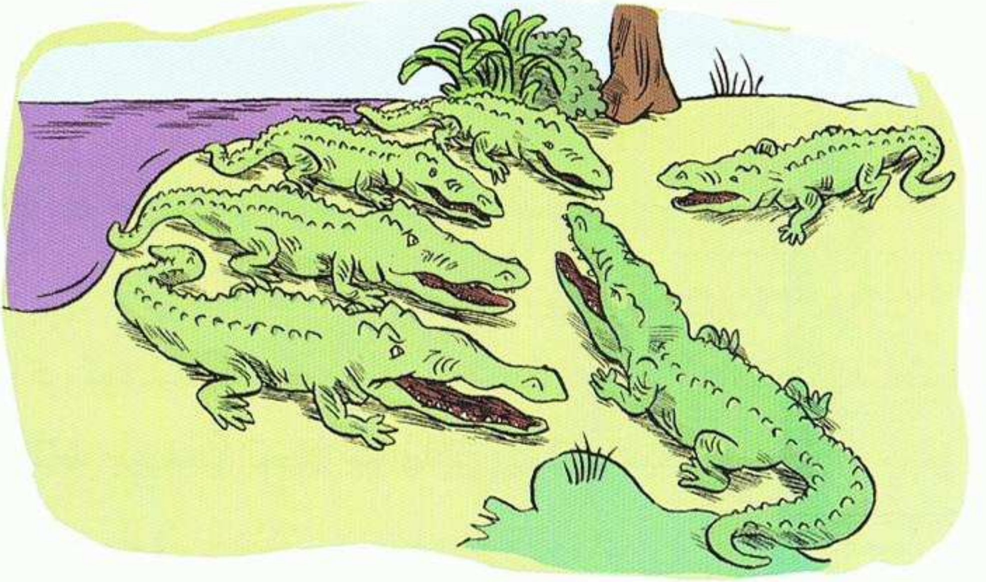


كانت تحزنُ لأنَّها عاجزةٌ عن إنقاذِهما.

وفي اللَّحظةِ الّتي اختفى فيها صوتُهما، توقَّفَتْ «كروكوديليا» عن الحِراكِ، جمدَتْ في مكانِها، حتّى لَيُخيَّلُ للنّاظرِ إليها أنَّ الحزنَ حوَّلَها إلى تمثالٍ، تمثالٍ بعينيْ أمٍّ خائفةٍ على مولودَيْنِ عالقَيْنِ بين الحياةِ والموت.

عينا «كروكوديليا» أثارَتا الحزنَ في قلوبِ الكبارِ والصّغارِ من سكّانِ غامبيا الّذين تجمّعوا بحَذَرٍ، يَدْفَعُهم الفُضولُ لمعرفةِ ما يَدورُ في بحيرةِ التّماسيحِ الّتي كانوا يَخشَوْنَ الاقترابَ منها. إنَّها فرصَتُهم اليومَ. فالتّماسيحُ مشغولةٌ عنهم. كأنَّها تَعقدُ اجتماعًا للتّشاورِ في موضوعِ التِّمساحيْنِ العالِقَيْنِ. كأنَّها تُفكِّرُ، تقترحُ، تتناقشُ، تضعُ خُطَّةً، تتحرَّكُ، وتعودُ خائبةً. كلُّ الخططِ فشلَتْ في تحريرِ السّجينيْنِ.

وتراجعَتِ التّماسيحُ إلى الوراءِ، كأنَّها أعلنَتِ اسْتِسْلامَها. وحدَها «كروكوديليا» بقيَتْ قريبةً من القناةِ القديمةِ الضَّيِّقَةِ حيثُ عَلِقَ صغيراها.



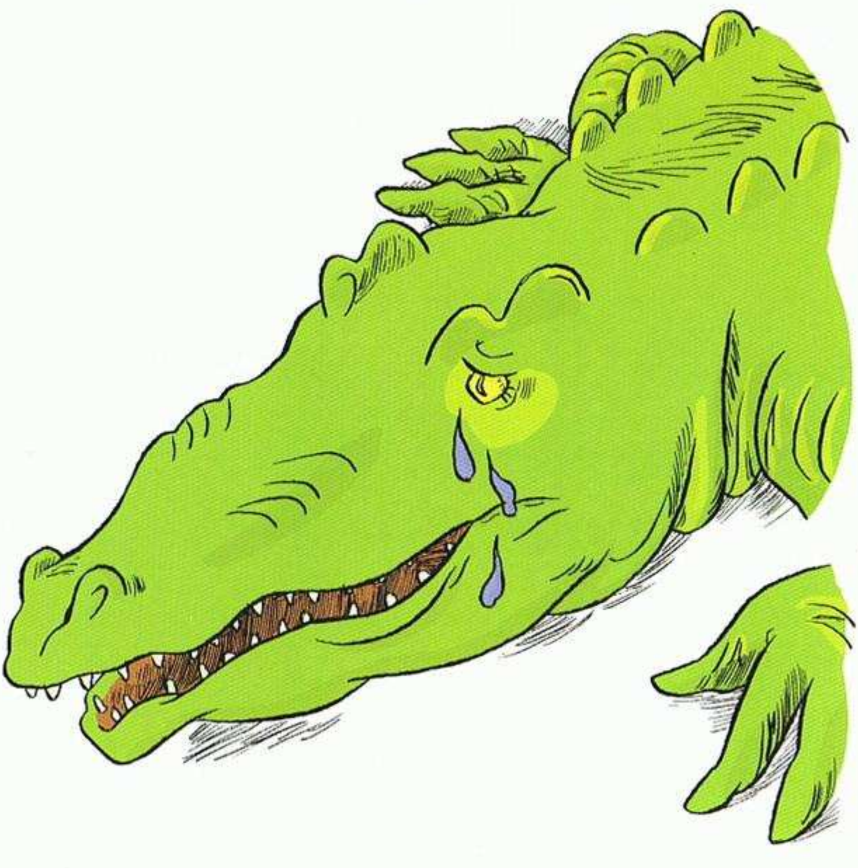
توقَّفَ الجميعُ عن الحركةِ. جَمَدَ كلٌّ في مكانِهِ وصمَتَ، علَّ صوتَ الصّغيريْنِ يشقُّ الصَّمتَ لتطمئنَّ القلوبُ عليهما. ولكنَّ أيَّ صوتٍ لم يصدرْ عنهما. عندها بكت «كروكوديليا» بكاءً أليمًا، بكاءَ أمٍّ تعرفُ أنَّ صغيريْها على وشكِ الموت، ولا تستطيعُ أن تفعلَ شيئًا. بَكَتْ بكاءَ أمٍّ تَخشى أن يكونَ صغيراها قد فارقا الحياةَ، وترفضُ أن تُصدِّقَ. بَكَتْ بكاءَ أمٍّ حزينةٍ، وبكت معها تماسيحُ البحيرةِ حزنًا.

ولأوَّلِ مرَّةٍ احترمَ سكَّانُ غامبيا، دموعَ التّماسيحِ. فقد كانوا يقفون على أطرافِ النَّهرِ، ويُتابعونَ أحداثَ القصَّةِ، ويَشْهَدون فُصولَها، ولكن لم يخطرْ لأيٍّ منهم أنَّهُ سيرى دموعَ التّماسيحِ الحزينة.

كثيرًا ما كانتْ دموعُ التّماسيحِ تُثيرُ غيظَهُم. فالمعروفُ عن التِّمساحِ أنَّهُ، ما إن يُلْقي القبضَ على فريسَتِهِ، إنسانًا كانَ أو حيوانًا كبيرًا، حتَّى يَقومُ بتقطيعِهِ إلى قِطَعٍ لِيَبْتَلِعَهُ بشكلٍ أسْرَعَ. ويَحصلُ هذا في أثناءِ دورانِهِ بسرعةٍ في الماءِ. وعند تقطيعِهِ تنهمرُ دموعُ التِّمساحِ الّذي يبدو كأنَّهُ يُشفِقُ على ضَحِيَّتِهِ، ويأْسَفُ لموتِها. ولذلك، إذا شاءَ إنسانٌ أن يَسْخَرَ من دموعِ إنسانٍ آخرَ،

قالَ له: «دموعُكَ دموعُ تماسيح»، في إشارةٍ منه إلى أنَّها دموعُ غِشٍّ وخِداعٍ.

ولكنْ ما لا يعرفُهُ كثيرونَ أنَّ الدّموعَ المُنْهَمِرَةَ من عيونِ التّماسيحِ لحظةَ انْقِضاضِها على الفَريسَةِ، ما هي إلّا نتيجةُ المضغِ. فكلّما مَضَغَ التِّمْساحُ، يَزيدُ إفْرازُ اللُّعابِ، وبالتَّالي يزيدُ إفرازُ الدُّموعِ من دونِ سببٍ. ولذلكَ يُطْلَقُ على الدُّموعِ البارِدَةِ الخالِيَةِ من أيِّ شعورٍ لقبُ: دموع التَّماسيح».



الفصل الثّالث: فقدان الأمل

يصمتُ جدِّي، وتعلو أصواتُ الحاضرينَ مُطالبةً بإكمالِ القصَّةِ، ليعرفوا ما الّذي حلَّ بالتِّمساحيْنِ الصَّغيريْن، وأمِّهما المسكينةِ. ولكنَّ أيًّا مِنَ الحاضرينَ لم يكنْ يَنظرُ إلى عيْنيْ جدِّي في أثناءِ حديثِهِ وصمْتِهِ. كانت عيناهُ، وفي كلِّ مرَّةٍ يَروي فيها القصّةَ، تُسافرانِ إلى غامبيا. يُمكنُ للنَّاظرِ إليه أن يرى بعيْنيْهِ شوارعَ غامبيا وأحياءَها. كما يُمكنُ أن يرى سكّانَ غامبيا وأسواقَها وأبنيتَها. والأهمُّ، أنَّهُ سيرى بُحَيْرَةَ التَّماسيحِ «كاشيكالي»، وتحديدًا التِّمساحةَ الأمَّ «كروكوديليا»، وسيرى حتمًا، وللمرَّةِ الأولى في حياتِهِ، دموعَ التَّماسيحِ الحزينة.

لَمْ أسْأَلْ جدِّي يومًا لِما أحبَّ غامبيا هذا الحبَّ، لأنَّني أنا نفسي أحْبَبْتُها. أنا الَّتي لَمْ أرَها يومًا إلّا بِعَيْنيْ جدِّي. ولكنِّي أحلُمُ أنِّي ذات يومٍ سأقطعُ تذكرةَ سفرٍ، وأحملُ جوازَ مرورٍ عليه تأشيرةُ دخولٍ إلى جمهوريَّةِ غامبيا. وستكونُ البحيرةُ المكانَ الأوَّلَ الَّذي سأقْصدُهُ. وستكونُ تماسيحُ غامبيا أوَّلَ ما سَأُلْقي عليْها تحيَّةَ السَّلامِ. وسأعيشُ معها حالةَ السَّلامِ الَّتي تَعيشُها.

سأُلامِسُها، وأُقدِّمُ لها الطَّعامَ، وأُجالِسُها وأبحثُ في عيْنيْها عن كلمةِ السِّرِّ الَّتي همسَتْ بها «كروكوديليا» ذات يومٍ لِتُحوِّلَ تماسيحَ غامبيا الشّرِسةَ إلى تماسيحَ مُسالِمةٍ.



ووسط اعتراضِ السَّامعينَ، يعودُ جدِّي عن صمْتِهِ ليُتابعَ الحكايةَ فيقول: «في اللّحظةِ الَّتي أدْرَكَتْ فيها «كروكوديليا» أنَّ التِّمْساحيْنِ الصّغيريْنِ لن ينجوا، غاصَتْ في أعماقِ النَّهر، وسْطَ ذهولِ السُّكَّانِ الّذين ينظرون إلى ما يجري من دون أن يعرفوا إذا كان عليهم أن يفعلوا شيئًا، أيَّ شيءٍ لإنقاذِ التِّمْساحيْنِ.

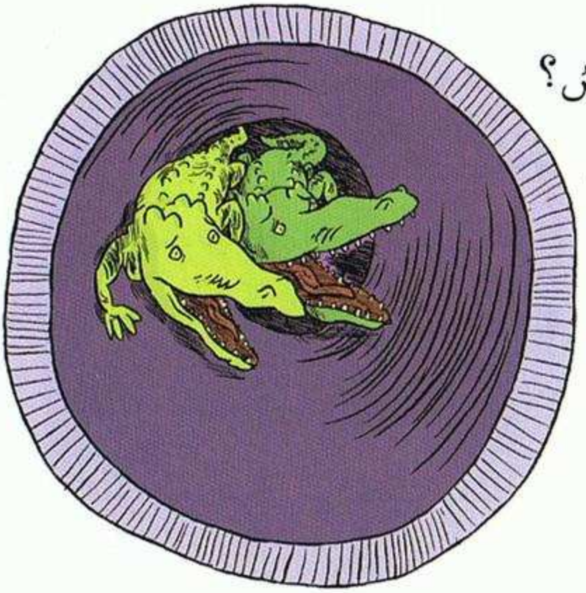
الفصل الرّابع: الخوف الصّامت

مرَّ الوقتُ ثقيلاً جدًّا، كأنَّ عقاربَ السَّاعةِ توقَّفَتْ، أو كأنَّها كانت تتحرَّكُ ببطءٍ شديد. التّماسيحُ جامدةٌ في مكانِها، ولا صوتَ يصدرُ عن التِّمساحيْنِ الصّغيريْنِ العالِقيْن، و«كروكوديليا» تحت الماء.

لا يُمكنُ للتَّماسيحِ أن تبقى مدَّةً أطولَ من خمسَ عشرةَ دقيقةً تحت الماءِ. وقد مرَّ هذا الوقتُ، أو هكذا شعرَ الجميعُ، و«كروكوديليا» لم تظهرْ بعد. هل تقومُ بعمليَّةِ انتحار؟ سألَ أحدُهم من دونِ أن ينتظرَ جوابًا. كأنَّ الجميعَ، في تلك اللَّحظةِ الَّتي اختفَتْ فيها «كروكوديليا» تحت الماءِ، توقَفَ حتَّى عن التَّنفُّسِ. إنَّهُ الخوفُ الّذي يُسيطرُ على الإنسانِ فَيَشلُّ قدرَتَهُ على الكلامِ أو الحركةِ أو التَّعبيرِ.

مِمَّ يَخافُ هؤلاءِ النّاسُ؟ هل يخافونَ أن يموتَ التِّمساحانِ الصّغيرانِ؟ ولِمَ سيخافون؟ لطالَما أشْعَرَتْهُمُ التَّماسيحُ بالخوفِ، وقضَتْ على الكثيرينَ منهم. هل يَخافون أن تثورَ الأمُّ حزنًا، وتثأَرَ منهم؟ ولكنْ ما الذّنب الّذي اقْتَرفوه؟ لا دخْلَ لهم بِما

حصلَ، حتَّى إنَّهم لا يعرفون كيف عَلِقَ التِّمساحانِ في القناةِ. لم يَحصلْ هذا مِنْ قبل، وما خُيِّلَ لأحدِهم أنَّهُ قد يَحصلُ.

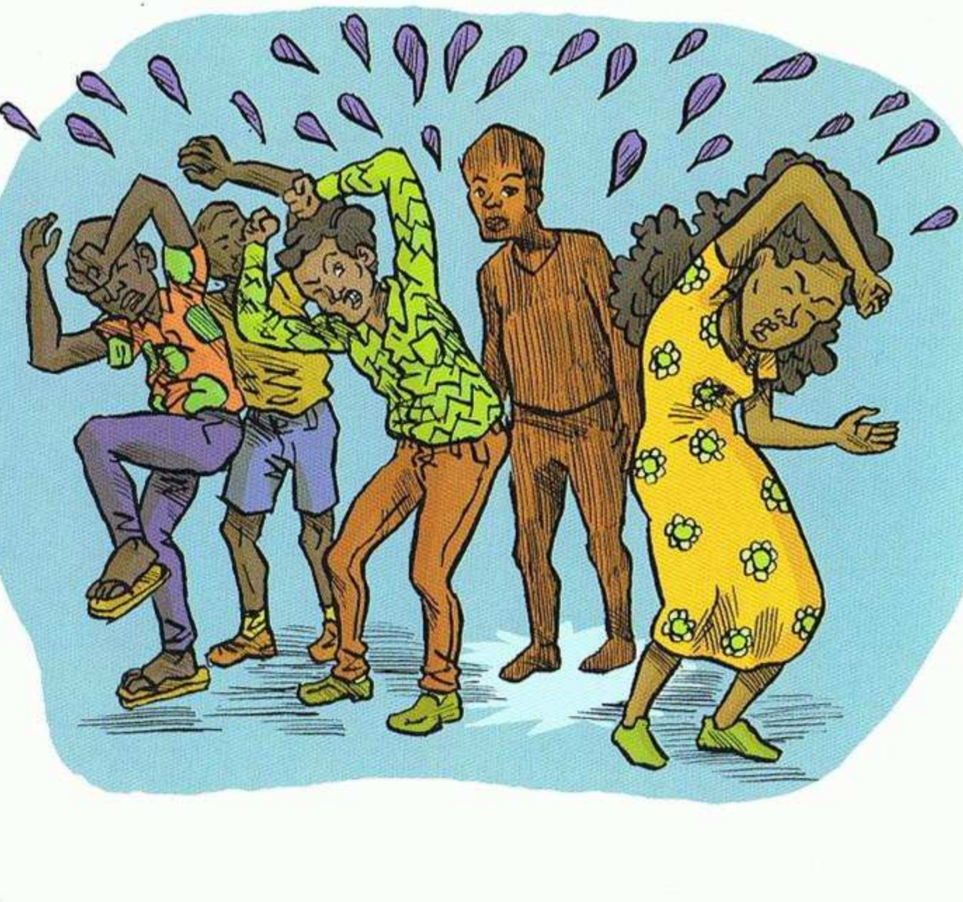


مِمَّ يَخافُ هؤلاءِ النَّاسُ؟ مِنْ تماسيحَ لا يتوقّفون عن صيْدِها كلَّما سنَحَتْ لهم الفرصةُ، كي يسلخوا جِلْدَها ويبيعوه، لأنَّه الأغلى سعرًا بين الجلود؟

لم يتمكَّن أيٌّ مِنَ الّذين يُتابعون ما يجري في بحيرةِ التّماسيحِ من أن يُعبِّرَ عن مشاعرِهِ في تلك اللّحظةِ، أو عن الأفكارِ الّتي خطرَتْ على بالِهِ. ولكنَّ شعورًا بالتَّعاطفِ كان يُضيءُ في أعيُنِهم. فمشاعرُ الأمِّ لا تستحقُّ إلّا الاحترامَ. واحترامًا لمشاعرِ «كروكوديليا» صمتَ الجميعُ. واحترامًا لحزنِها حزِنوا، واحترامًا لخوفِها على صغيرَيْها خافوا.

الفصل الخامس: دفاعًا عن الحياة

أجملُ علاقةٍ بين الإنسانِ والحيوانِ تمثَّلَتْ في تلك الحادثة. وأكثرُ اللّحظات تأثُّرًا كانت تلك الَّتي رفَعَتْ فيها «كروكوديليا» رأسَها من الماءِ بقوَّةٍ جعلَت قطراتِ الماءِ تنهمرُ كأنَّها المطرُ على رؤوسِ جميعِ مَنْ كان يقفُ ليُشاهدَ ما يجري.



كأنَّها أرادت أن تبكيَ الأرضُ والسَّماءُ، ويبكي النّاسُ معها حزْنًا وعجزًا وضعْفًا ويأسًا. كأنَّها أرادَتْ أن تدفعَهم للقيامِ بعملٍ ما، إذْ لا يُعْقَلُ أن يقفَ المرءُ ساكنًا من دون حِراك، يَشْهدُ موتَ كائنٍ بريءٍ. قطراتُ ماءٍ كانت كأنَّها السِّحْرُ، إذْ ما إن بدأت بالسّقوطِ على رؤوسِ النّاس الّذين حاولوا أن يحموا وجوهَهم كردٍّ فعلٍ طبيعيٍّ، حتّى ظهرَ من بينِهم رجلٌ لم ينتبهْ لوجودِهِ أحدٌ. تقدَّمَ وبيدِهِ ما يُشْبِهُ السَّيْفَ، وتخطّى الجميعَ، ومشى باتِّجاهِ البحيرةِ، وغاصَ فيها من دون أن يَخشى التَّماسيحَ الَّتي كانت تُلاحِقُه بنظراتِها، وهي جامدةٌ في مكانِها لا تتحرَّكُ.

وقصدَ القناةَ رجلٌ، ما كان يَعْرِفُهُ أحدٌ. وتوقَّفَ عندَها، وضربَ عليها بسيفِهِ ضرباتٍ متناغِمةً، وعندما رفعَ سيفَهُ سمعَ الجميعُ صوتَ الصّغيريْنِ كأنَّهما يُجيبانِ الرّجلَ عن سؤالٍ طرَحَهُ عليهما بضرباتِ سيفِهِ. وعلا تصفيقُ الحاضرينَ فرَحًا. التِّمساحانِ بخيرٍ، راحوا يُردِّدون، ويتبادلونَ السّلامَ والقبلات. التِّمساحانِ بخيرٍ، وبكت التَّماسيحُ من جديد، ولكن هذه المرّة، فرَحًا».

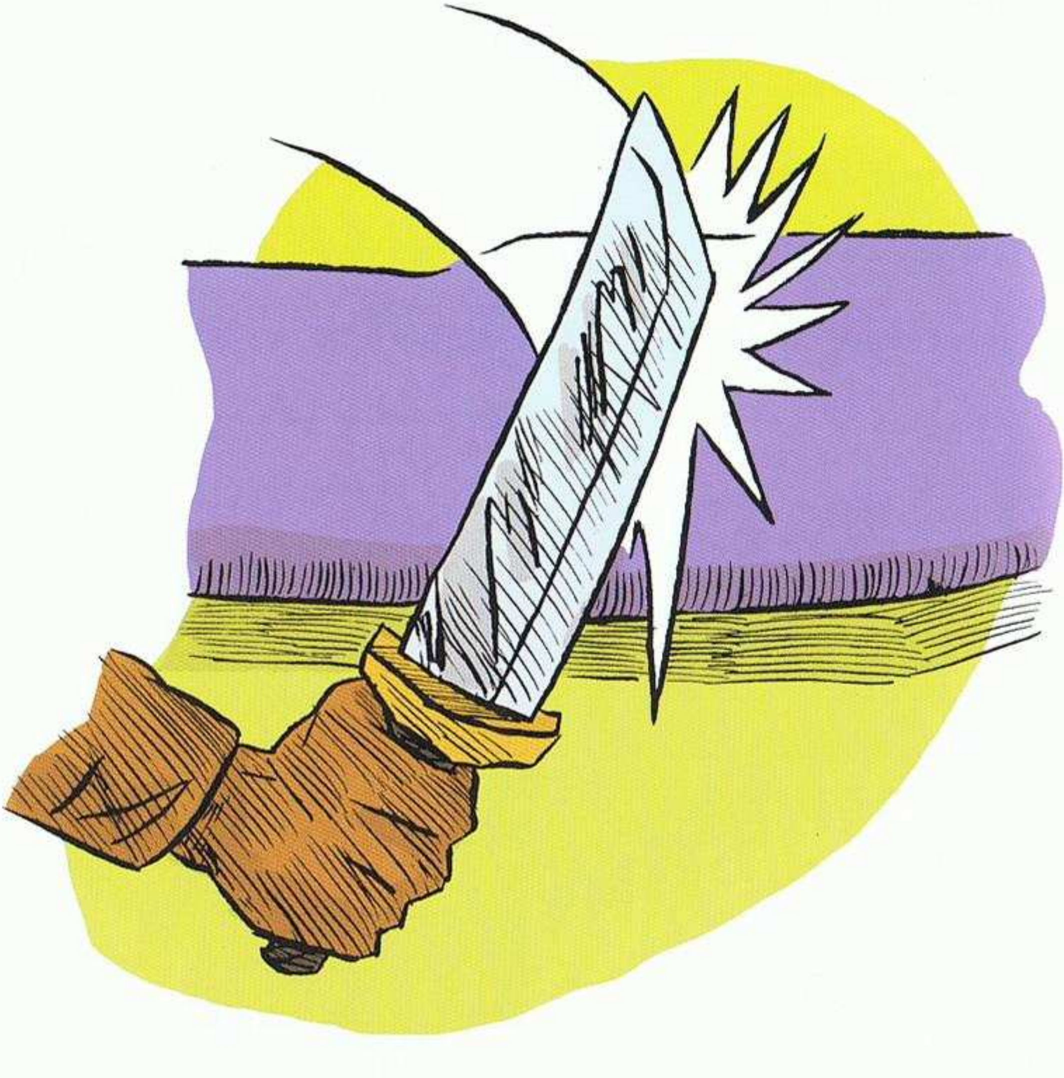


الفصل السّادس: بين الرّجاء والأمل

يصمتُ جدِّي، من دون أن تعلوَ أصواتُ الحاضرينَ مُطالبةً بإكمالِ القصَّةِ. كأنَّهم لم ينتبهوا إلى أنَّهُ صمتَ، فكلٌّ منهم أخَذَهُ الخبرُ السَّعيدُ بعيدًا، ليرسمَ في ذِهْنِهِ صورةَ «كروكوديليا» عندما سمعَتْ صوتَ الصّغيريْنِ. ولأوَّلِ مرَّةٍ يبدو التِّمساحُ جميلاً في عيْنَيِ البعضِ. فالسَّعادةُ الَّتي ظهرَتْ على وجهِ «كروكوديليا» جعلتْها تبدو في أذهانِنا، نحن المستمعين، جميلةً جدًّا، بل أجملَ من حوريَّاتِ البحرِ. وظهرَت على وجوهِنا ابتسامةُ رضا. كلُّنا أردْنا لسببٍ نَجْهَلُهُ أن ينجوَ الصّغيران. هل حقًّا نجهلُ السَّبَبَ؟

وعندما ينتبهُ الجميعُ إلى أنَّ جدِّي صمتَ، يعودُ عن صمْتِهِ وسْطَ اعتراضِهم، ويُتابعُ قائلاً: «وعندما توقَّفَ التَّصفيقُ، وصمتَ الجميعُ من جديدٍ، راح الرَّجلُ الغريبُ يُلامسُ القناةَ بيديْهِ، ويُقرِّبُ أُذُنَهُ، في مُحاولةٍ منه لالتقاطِ صوتِ أنفاسِ الصَّغيريْن، وتحديدِ موقِعِهما، قبل أن يرفعَ فأسَهُ ويضربَ بكلِّ

ما أوتِيَ من قوَّةٍ ضرباتٍ متلاحقةً وسريعةً، مَخافةَ أن يتحرَّكَ أحدُ التِّمساحيْنِ الصّغيريْنِ، فَيُلْحقَ الأذى به.



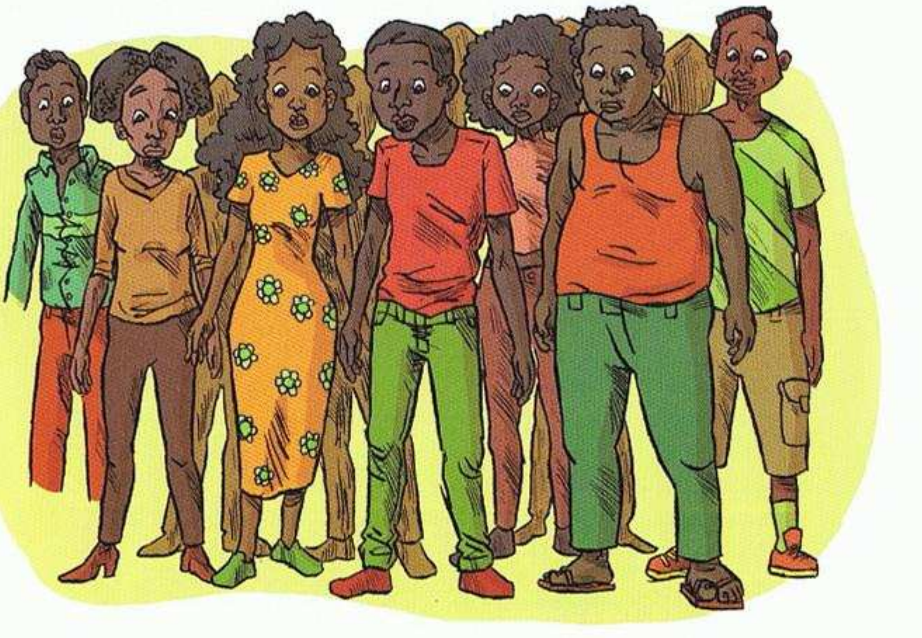
وفي أثناءِ ذلك، قطعَ الجميعُ أنفاسَهُ ترقُّبًا لِما قد يحصل، في وقتٍ غاصَتْ فيه التّماسيحُ تحت الماءِ، كأنَّها تُقدِّمُ تحيَّةَ شكرٍ لهذا الرّجلِ الغريبِ، الّذي لا يعرِفُهُ أحدٌ. وحدها «كروكوديليا» بقيَتْ فوق الماءِ، تنظرُ إلى الرّجلِ بعيْنيْن مِلْؤهُما الرَّجاءُ والأمل.

وكان الرَّجلُ، يتوقَّفُ بين الحينِ والحينِ، ويُقرِّبُ أُذُنَهُ من جديدٍ من القناةِ، ويُلامِسُها بيديْهِ، في محاولةٍ للتّأكّدِ من أنَّ التِّمساحيْنِ لم يتحرَّكا من المكانِ الَّذي حدّدَهُ سابِقًا. ويعودُ ليضربَ ضرباتٍ متناغمةً، وينتظرَ ردَّ التِّمساحيْنِ الّذي ما كان يتأخَّر ليأتي وذلك قبل أن يُعاودَ الضّربَ بقوّةٍ وسرعة.

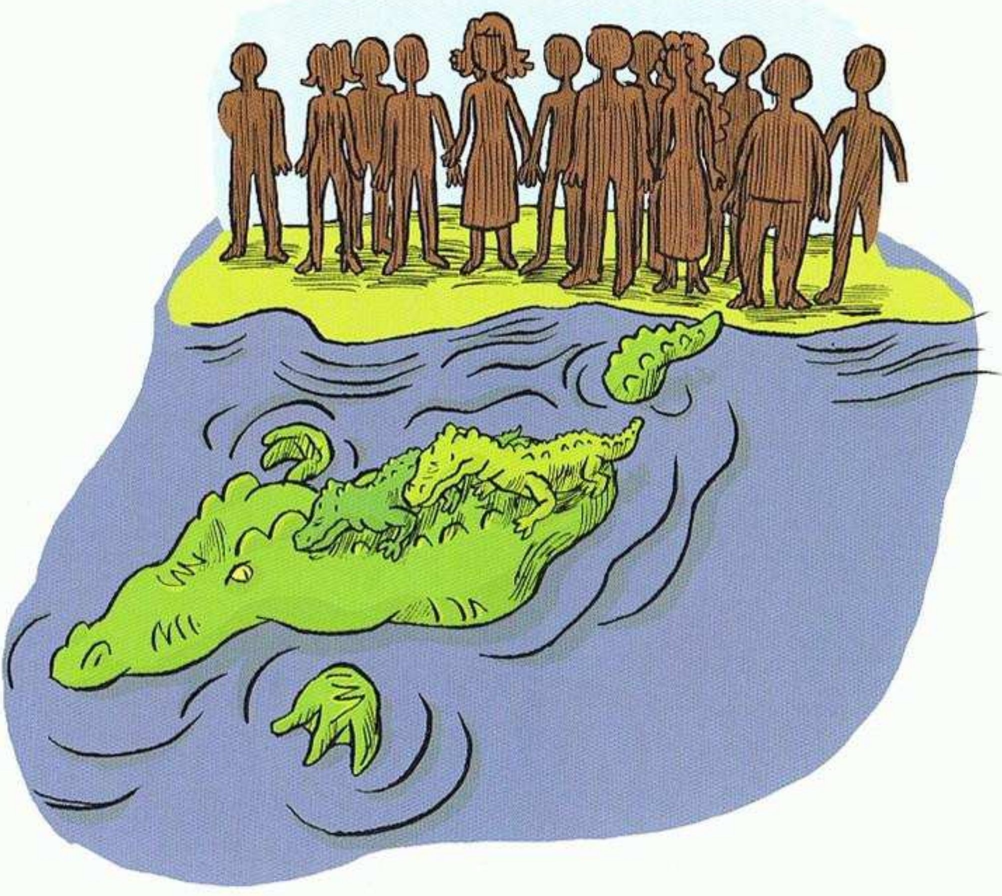
كأنَّ لغةً مشتركةً أتْقنَها الرّجلُ والتِّمساحانِ الصّغيرانِ، ولم يُتْقِنْها سواه. الجميعُ شعرَ أنَّهُ يَعرفُ لغةَ التَّماسيحِ، بل ويُحْسِنُ التَّواصلَ معها. الجميعُ كان على يقينٍ أنَّهُ، بتلك الضَّرباتِ المتناغمةِ، كان يحكي مع التِّمساحيْنِ، وكانا يجيبانِهِ.

الفصل السّابع: صوت الحياة

مرَّ وقتٌ قبل أن تبدَأ قِطَعٌ من القناةِ بالسّقوطِ تحتَ ضرباتِ الرَّجلِ. وأيْقَنَ الجميعُ أنَّ التِّمساحيْنِ سينجوانِ، على الرّغم من الخطرِ الّذي قد يواجهانِه في حال تحرَّكَ أيٌّ منهما. فإذا حصل لهما سوءٌ فلن ينجوَ الرّجلُ من عقابٍ مميت، إذْ إنَّ الأمَّ الّتي كانت تنظرُ تارةً إليه ، وتارةً إلى الأعلى، وكأنّها تدعو الله أن يُعطيَه القدرةَ على إخراجِ صغيريْها، لن ترأفَ به إذا ألحقَ السّوءَ بهما.



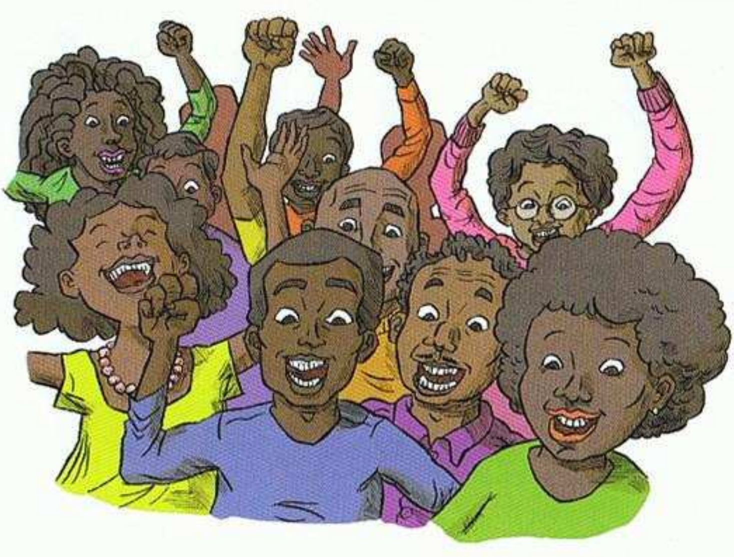
وعندما بدأتِ الضّرباتُ تنزلُ على مهلٍ، أدركَ الجميعُ أنَّ الرَّجلَ اقتربَ من موقعِ التِّمساحيْن. ومن جديدٍ حُبِسَتِ الأنفاسُ، وغاصَتِ التّماسيحُ مرّةً ثانيةً تحت الماء. وحدها «كروكوديليا» عبَّرَتْ عن نفادِ صبرِها لحظةَ أصْدَرَتْ صوتًا هزَّ الأرضَ والسَّماءَ، وأخرجَ التِّمساحيْنِ إلى النّورِ من جديد.



وعلا التّصفيقُ الّذي سُمِعَ في أرجاءِ جمهوريَّةِ غامبيا على امتدادِها. تصفيقٌ بدأَ وازدادَ عندما اقتربَ الصَّغيرانِ من أمِّهما فغاصَتْ بهما بعيدًا عن أعينِ الجميعِ.

كأنَّها خافَتْ أن يكتشفَ الجميعُ حقيقةَ التَّماسيحِ. فللتَّماسيحِ أحاسيسُ ومشاعر، وهذا ما لا يعرفُهُ كثيرون. ومن الأفضلِ ألّا يعرفوه كي يحذروا دائمًا منها، ويُفكّروا طويلاً قبل مُهاجَمَتِها.

وعندما رفعَت «كروكوديليا» رأسَها بحثًا عن الرّجلِ الّذي أنقذَ التِّمساحَيْنِ، لم تَجدْهُ. وانتبَهَ الجميعُ إلى أنَّها تنظرُ حيثُ كان يقفُ، ولكنَّهُ اختفى، تمامًا كما حضرَ. لم يَرَهُ أيُّ واحدٍ يَخرجُ من البحيرةِ، فأين هو؟ وكيف اختفى؟».



الفصل الثّامن: كلمة سلام

يصمُتُ جدِّي وَسْطَ ذُهولِ الحاضرينَ الّذين عجزوا عن تفسيرِ ظهورِ الرَّجلِ بالشَّكلِ الّذي ظهرَ فيه، وعن اختفائِهِ. وأعادوا الأمرَ إلى حصولِ عجيبةٍ من العجائبِ، على الرُّغمِ من إيمانِ البعضِ بأنَّ زمنَ العجائبِ قد ولَّى.

ولكنَّ القصّةَ لم تنتهِ، يقولُ جدِّي ويُتابعُ: «يقول سكّانُ غامبيا الّذين شَهِدوا الحادثةَ إنَّ «كروكوديليا» بحثَتْ في وجوهِهم جميعًا عن وجهِ الرَّجلِ الّذي لن تنساهُ أبدًا في حياتِها. ولمّا لمْ تَجِدْهُ، همسَتْ في أُذْنِ كلِّ تِمْساحٍ من تماسيحِ بحيرةِ «كاشيكالي» كلمةً سرِّيَّةً حوَّلَتْهُ إلى تِمساحٍ مُسالِمٍ لا ينظرُ إلى الإنسانِ على أنّهُ فريسةٌ مُحْتَمَلَةٌ، بل كصديقٍ للبيئةِ والطَّبيعةِ من حولِهِ.

كلمةُ السِّرِّ بَقِيَتْ سرًّا خبَّأَهُ كلُّ تِمساحٍ في مكانٍ عميقٍ في قلبِهِ. ولم يتمكَّنْ أيُّ إنسانٍ مِنْ أنْ يَعْرِفَهُ.

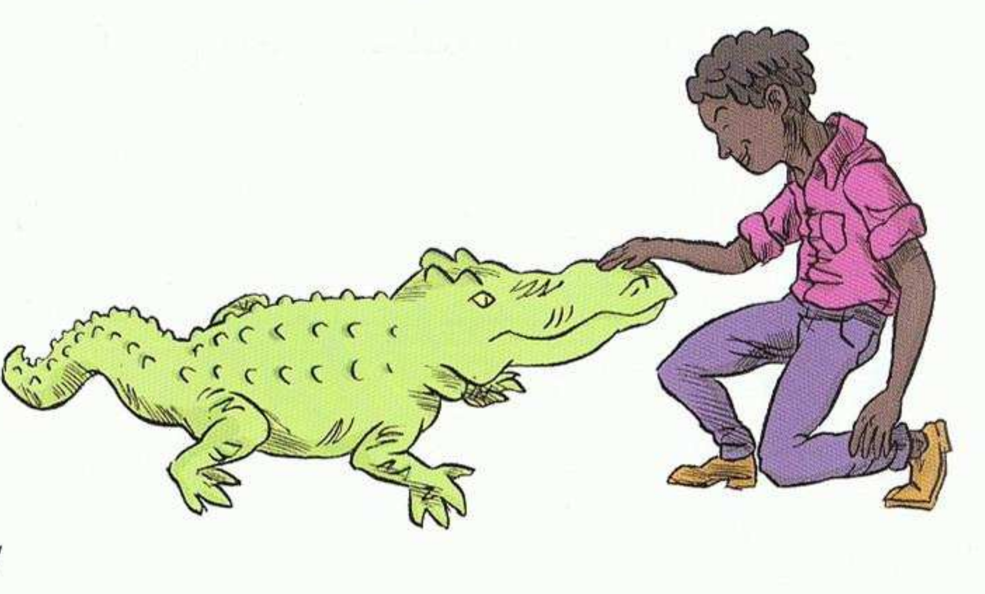
مع مرورِ الوقتِ، أدركَ النَّاسُ أنَّ تماسيحَ البحيرةِ لا تُلْحِقُ الأذى بهم، فاقتربوا منها، وبَنَوا معها علاقاتٍ إنسانيَّةً كالَّتي

نبنيها مع جيرانِنا وأصدقائِنا، علاقاتٍ تقوم على المحبّةِ والتّقبُّلِ واحترامِ حقِّ الآخرِ بالحياةِ الآمنةِ.

مع مرورِ الوقتِ، ما عادَ النَّاسُ يسألونَ عن كلمةِ السِّرِّ. صاروا يعرفون، فهل عرَفْت السِّرَّ أنت أيضًا؟

لا يُمكنُ أن يفهمَ الإنسانُ حقَّ الإنسانِ والحيوانِ بالعيشِ، وضرورةَ الحفاظِ على التّوازنِ البيئيّ من خلال الحفاظِ على الكائنات الحيّة، إلّا إذا زارَ جمهوريّة غامبيا لمرَّةٍ واحدةٍ في حياتِهِ. مرّة تكفي لنعرفَ أنَّ في الحياةِ أسرارًا لا يُمكنُ أن نكتشِفَها، وغرائبَ من الجميلِ أن نُصدِّقَها».

أنا صدّقْتُ الحكايةَ، فهل صدّقتها أنت؟



الفهرس

علق التّمساحانِ المولودانِ حديثًا في قناةٍ للماءِ،
قديمة وضيّقة، تُحيطُ بها الصّخور.
كيف دخلاها؟ وكيف سيخرجان منها؟
وكيف تحوّلت تماسيح غامبيا إلى تماسيح مُسالِمَة،
لا تُلْحِقُ الأذى بالإنسان؟

«كلمة سرّ»، قصّة تدعو للحفاظِ على التّوازن البيئيّ،
من خلال الحفاظ على الكائنات الحيّة.

ISBN 614-402-630-4
9 786144 026304
Book # A 720
أصالة
للنشر والتوزيع